

انطباعات الذاكرة

القسم الأول: صور في ذاكرة الطفولة

(منقحة ٢٠١١-٨-٣)

علي خليفة الكواري

أسطر في هذا القسم ذكريات الطفولة من الرابعة الى سن الثانية عشر حسب وعي لها وتداعي الأحداث ذات العلاقة. والغرض من ذلك هو العودة إلى الذاكرة وتوثيق وعيي للتاريخ الاجتماعي كما سجلته ذاكرتي، سواء كان من خلال المشاهدة والمعايشة والإحساس أو من خلال الرواية الموثوق بها، التي أخذتها عن والدي وأهلي رحمهم الله في البداية ثم ممن اختلطت بهم خلال فترات الزمن ومراحل العمر.

(١)

ولادة زمان: أمسكي العمود وقولي يا الله

إن أول ما وعيت عليه ربما قبل أن أعي أسمي و من حولي والمكان الذي عشت فيه، هو ولادة أمي لأختي نجلا رحمهما الله عندما كنت ربما بين الثالثة والرابعة عام ١٩٤٤ أو ١٩٤٥. ويعود وعيي لتلك الولادة ورسوخها في ذاكرتي قبل أي شيء آخر أعياه اليوم، إلى الصعوبة التي صادفتها والدتي رحمها الله خلال الوضع، لقد كانت تصرخ وتتألم وربما استمرت الولادة وقتاً أكثر من المعتاد في عمليه الطلق. وأذكر أن الولادة كانت في المنزل شمال قريتنا الغارية، في احد الدور (غرفة من غرف المنزل) وكان في الدار سرير خشبي كانت احد قوائمه موصولة بعمود تمسك به والدتي، وتكرر القول مستغيثة "يا الله يا الله يا الله" ومن حولها نساء العائلة والجيران ربما خالتي حصة وأخواتي الكبار من أمي فاطمة ومريم والجيران، ومنهم على ما علمت فيما بعد هميان بنت جفال. ويبدو أنني كنت متألم من حالة والدتي وخائف عليها من الحالة التي وجدتها فيها تصرخ دون أن يكون هناك معين لها غير الله. فلا يوجد طبيب ولا تدخل من داية أو ممرضة ولا توجد إمكانية لذلك فليس في القرية كلها شيء من ذلك وإنما يساعد الأهل

بعضهم بعضاً. فقد يتوفى الله المرأة قبل الولادة مع طفلها عندما تتعسر الولادة أو من النزيف، إذا كانت هناك محاولات بدائية لإنقاذ الجنين. ولذلك كانت وفيات الأمهات في الولادة البكر كثيرة وقد فقد والدي رحمه الله زوجته الأولى كلثم بنت راشد وتوفى أبناها حال ولادته. وكلثم بنت راشد رحمها الله عمه راشد ومحمد بن سالم وإخوانهما وعلى أسمها سميت كلثم بنت سالم زوجة عجلان بن علي بن عمران. وقد استمرت علاقة والدي مع العم سالم بن راشد علاقة الأخ الكبير شهدت فيما بعد، تشاورهما في كثير من الأمور الخاصة عندما انتقلا إلى السكن في الدوحة في فريج أم غويلينة.

ولعل وفيات الولادة ومعدلاتها المرتفعة كانت سبباً في قلة النساء نسبياً وعدم وجود امرأة غير متزوجة في ذلك الوقت، إلا ما ندر. فالمرأة تتزوج بعد انقضاء عدة الوفاة أو الطلاق. من هنا كانت ظاهرة كثرة الأخوة غير الأشقاء بين أهل قطر في الماضي. وكذلك كانت مسألة زواج المرأة والرجل بعد كل وفاة للشريك أو الطلاق وانقضاء العدة، أمر يسير. ولعل هذا السبب كان وراء زواج والدي ثمان مرات طوال عمره المديد الذي ناهز المائة عام عندما أختاره الله عام ١٩٩٣. ولعل مثال إحدى نساء الغارية التي تزوجت ستة عشر مرة يؤكد مدى السماحة الاجتماعية بالنسبة لتكرار زواج المرأة في ذلك الزمان مقارنة بوقتنا الحاضر.

وقد كانت تلك الولادة التي وعيت على آلامها، مصدر فرحة بعد أن أنجبت والدي أختي نجلا. وأصبح حديثي كطفل عن تلك الولادة وخوفي على والدي وإصراري على الاحتفاظ بشقيقتي مصدر مداعبة بين الأهل والجيران. وقد ذكر لي فيما بعد أن هميان الجفال رحمها الله وقد كانت ممن حضر الولادة وكانت تأخذني معها أحيانا إلى بيت الجفال وهناك أجد من يغيظني بالقول أنهم سوف يأخذون أختي نجلا من عندنا. وكنت أقول لهم "أللي يبقي بنيه يمस्क العمود ويقول ياالله".

أصعب الأوقات وأحلكها

جاءت ولادة أختي نجلا وبداية وعي لما يحيط بي ، حوالي عام ١٩٤٥ وهذه السنة كانت من أحلك السنوات التي مرت على أهل قطر في العصر الحديث . فالغوص انتهى والنفط لم يبدأ تأثيره في قطر والحرب العالمية الثانية قطعت عنهم الإمدادات وأثرت على أسعار اللؤلؤ المتدنية أصلاً، مما اضطر أهل قطر إلى الهجرة إلى البحرين أولاً وإلى السعودية فيما بعد. وتذكر المصادر التاريخية أن سكان قطر عام ١٩٤٥ هبط إلى حوالي ١٦ ألف نسمة بعد أن كان في عام ١٩١٣ يقدر بحوالي ٣٥ ألف نسمة، وقد بدأت تلك الهجرة ربما منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين بسبب تراجع أسعار اللؤلؤ وكساد أسواقه نتيجة لأربعة عوامل تتالت على المنطقة. أولها: الدالوب عام ١٩٢٦، وهو عاصفة عاتية تسببت في إغراق أغلب سفن الغوص في الخليج عامة، التي كانت في بداية موسمها، حتى من عاد إلى الموانئ منها وكان راسياً . وقد أصبحت هذه الكارثة حدثاً يؤرخ به (سنة الدالوب) ويذكر والدي أن سفينته الصغيرة مع سائر السفن التي كانت راسية في قرية المفجر طبعت (غرقت) في المرسى وكذلك جميع السفن الراسية. وقد تسببت هذه الكارثة في تحطيم رأس المال الإنتاجي لأهل الخليج في وقت تراجعت فيه الدخول. ثانيها: اختراع استزراع اليابان اللؤلؤ الصناعي عام ١٩٢٦ وبداية مزاحمته للؤلؤ الطبيعي المصدر من الخليج إلى أسواق العالم منذ مطلع الثلاثينيات. ثالثها: الكساد العالمي عام ١٩٢٩ وتأثيره على الطلب الأوروبي والأمريكي والعالمي عامة على اللؤلؤ الطبيعي الذي هبطت أسعاره تدريجياً حتى لم تعد تغطي تكاليف الحصول عليه. رابعها: الحرب العالمية الثانية التي جاءت في وقت كان الناس في قطر قد استنزفوا مدخراتهم واضطروا إلى بيع كل الأصول التي كانت لديهم، حتى اضطروا إلى بيع ما تبقى من سفنهم وحتى أسقف منازلهم وأوانيهم أحياناً، ولاحقتهم الديون من نشاط الغوص الذي لم تعد إيراداته تغطي تكاليفه بعد أن كان الغوص المصدر الرئيسي للدخل النقدي، كما كان عبر عشرات القرون.

وإضافة إلى هذه العوامل التي شكلت طرد لأهل قطر، كانت هناك بعض مصادر الجذب في البلدان الأخرى تمثلت في اكتشاف النفط في البحرين عام ١٩٣٢ والسعودية حوالي ١٩٣٥، الأمر الذي شجع أهل قطر عامة وأهل شمال قطر خاصة على الهجرة إلى البحرين بالدرجة الأولى وإلى السعودية بشكل أقل. ولعل التلاعب في مواد التموين المخصصة لقطر وتهريب معظم حصة قطر من قبل القائمين عليها في الدوحة، من السكر والحبوب إلى إيران ودبي، حيث كان ما يخص للسكان لا يتعدى توزيعه حدود الدوحة وضواحيها وربما الخور. أما قرى شمال قطر فلم يكن لها نصيب من التموين وكانت علاقاتها التجارية مع البحرين أكبر من علاقتها مع الدوحة لقرب المسافة. وجديرًا بالذكر أن قرى الشمال عامة بعد الخور قبل ١٩٥٠ وباستثناء الزيارة لم يكن فيها مركز أو مقر حكومي. وكانت هناك دورية بحرية في رأس ركن قوامها لنج (قارب) واحد بإمرة سعد الخرجي كما يذكر والدي رحمه الله. وكان من ضمن اهتماماته منع الهجرة من قطر إلى البحرين التي تزايدت بشكل خاص منذ عام ١٩٤٠. هذا إضافة إلى وجود حامية الزيارة.

(٣)

فترة الحرب العالمية الثانية

يذكر والدي عدد من الأحداث تبرهن على ما وصلت إليه الحال في قرى شمال قطر في الأربعينيات. يقول انه أثناء فترة الحرب العالمية الثانية تردت حالة قرى الشمال وكان احد مصادر دخلهم بيع ما يمكن بيعه إلى البحرين ومن الأشياء التي كانوا يصدرونها إلى البحرين في سفن شرعية، حجارة الجير التي يصنع منها بعد حرقها الجص (الجبس). ويذكر والدي أنه أحيانا كان يقطع ويبيع حجارة الجير هذه التي كان ينقلها على ظهر حمارة، ويذكر أنه كلما نقل حمل على ظهر الحمار كان يحمل حجراً على كتفه بحيث يضيف حمل سابع لكل ستة دروب.

ويقول أيضا انه خلال هذه الفترة وصل إليهم بوم (سفينة) من ساحل فارس محملاً بالحبوب والبصل والأغنام متجهه إلى البحرين فاضطر بسبب اشتداد الريح

أن يرسوا في الغارية. وعندما نزل أهل السفينة إلى الساحل قابلهم أهل القرية وكانت حالتهم صعبة جداً فليس لديهم نقود يشترون بها كما اعتادوا في الماضي، وليس في حوزتهم ما يقايضون به بضاعة صاحب السفينة عندما عرضها عليهم، وكانوا في أمس الحاجة إليها. أخيراً قال لهم صاحب السفينة هل لديكم ماءً نشتره فقالوا يمكن أن نجلب الماء من عذبة (مسافة ٥ كيلو متر) فوافق على أن يقايض الماء ببعض ما لديه من بضاعة. وعندما بدوا بجلب الماء على ما توفر لديهم من حمير وجمال في تنكات سعة ٢٠ لتر (وتسمى بيب نسبة إلى BP أي شركة البترول البريطانية) التي كان يجلب فيها الكيروسين من البحرين أو عبادان ثم يعاد استعمالها لجلب الماء، وجد بحارة السفينة أن الأوعية ثقيلة ولكن الماء الذي تحتويه قليل وعندما سألهم صاحب السفينة عن تفسير ذلك قالوا له أننا نضع الطين لسد ثقوب التنكة التي نعتمد عليها في جلب الماء. وقد كان ذلك الاعتماد بسبب قلة ذبحهم للأغنام نتيجة ضعف الحال وبالتالي عدم وجود جلود يصنعون منها القرب كما اعتادوا.

وما كان من صاحب السفينة إلا أن سألهم؟ لماذا لا تهاجرون هل انتم محكوم عليكم بالإقامة الجبرية؟ هل انتم ممنوعون من السفر هل انتم في معزل إجباري، إنني لا أرى شجرة واحدة في القرية وليس فيها ماء وليس لديكم شيء تبيعونه ولا نقودا تشترون بها، فلماذا أنتم مقيمون هنا لماذا لا تسافرون، فدنيا الله واسعة والعيش من شمالكم وشرقكم أوسع وأيسر.

في هذا الوضع الاقتصادي المزري وعيت على الدنيا وانطبع في ذاكرتي الجهاد العظيم الذي كان يقوم به أبي والصعوبات التي واجهت والدي في توفير الحد الأدنى من المعيشة. لقد كانت التمرة ووجبة الجريش هي الحلم الذي تصبو إلى توفيره الأسرة لأفرادها. ولولا وفرة السمك ووجود بقية من الغنم والبقر تدر لبن ومنه يستخلص السمن لما ابتعد شبح المجاعة عن قطر .

(٤)

زواج بالحجارة

ولعل الذكرى الثانية التي وعيت عليها هي زواج أختي من أمي فاطمة بنت ربيعة بين عيسى رحمها الله، على شقيق الوصي عليها بعد وفاة والدها. وقد كان ذلك الزواج عام ١٩٤٦ أو ١٩٤٧، ويبدو أن فاطمة رحمها الله كانت غير راغبة في ذلك الزواج وكان عمرها لم يبلغ الخامسة عشر وربما كانت ترغب أن تهاجر معنا إلى البحرين بدلاً من هذا الزواج والبقاء بعيداً عنا في الغاربية، بعد أن قرر والدي الهجرة وترك الغاربية مضطراً تحت قساوة المعيشة وشحه مصادر الرزق التي سبق وان أشرت إليها.

ولعل ما أتذكره من ذلك الزواج هو المقاومة التي أبدتها فاطمة عند محاولة دزتها كما يقال لها آن ذاك، ولا أقول زفافها على المعرس. لقد تعدت مقاومة فاطمة ونحن الأطفال من حولها نساعدنا بالحجارة والعصي، المقاومة التقليدية المعتادة وأصبحت شبه معركة استخدمت فيها فاطمة التي انزوت منذ أن علمت بموعد الزواج في المتبنة أو مخزن الحشيش (العلف)، وقمت أنا وعدد من الأطفال بمساعدتها في المقاومة، وأحضرنا لها الحجارة إلى جانب العصا التي كانت ممسكة بها للدفاع عن نفسها حتى تمكنت النساء أخيراً منها وحملوها مكرهة إلى الزوج الذي لم ترغب فيه ولم تستطع معاشرته طوال سنوات الزواج التي دامت في مشاجرة وقهر جماعي من قبل أسرة زوجها وهم أقرب الناس لها لمدة حوالي سبع سنوات حتى عام ١٩٥٣ حيث تم الطلاق على يد القاضي بعد معركة أخرى بالحجارة أيضاً قمت بها أنا في مسجد القرية بعد صلاة الجمعة، لرفع الظلم عن فاطمة.

(٥)

الهجرة إلى البحرين

من الذكريات المبكرة التي وعيت عليها كانت حوالي عام ١٩٤٧ عندما غادرنا الغارية في قطر إلى البحرين، وهي أننا نسينا شقيقتي التي تصغرنى لولوه البالغة من العمر آن ذاك أربع سنوات نائمة في السفينة التي هربتنا ليلا إلى حالة النعيم في البحرين. وقد كانت فرحتي وفرحت والدتي وأختي مريم بنت ربيعة، أختي من أمي البالغة من العمر حوالي اثنا عشر سنة، كبيرة عندما أستطاع والدي اللحاق بالسفينة الصغيرة التي يملكها عجاج بن ربيعة الكبيسي و التي أنزلتنا فجراً وعاد إلينا بها نائمة بين يديه.

وعجاج وإخوانه على وخالد وكذلك على بن خليفة وأخيه الشاعر سالم من الكبيسة الذين كانوا يسكنون الغارية وعذبة مع البوكورة.

ويذكر والدي رحمة الله انه قرر الهجرة بعد أن رفض فكرتها مدة طويلة من قبل ، وذلك عندما اضطر إلى الذهاب إلى البحرين مصطحباً معه على بن راشد ابن خالتي حصة وزوج شقيقتي لولوه فيما بعد ، حيث ركبا الغوص مع بطي بن هادي ألهاجري المقيم في حالة السلطة وهي حالة مجاورة لحالة النعيم. وقد نشأت علاقة طيبة بين والدي وبين راشد بن بطي. كما كانت هناك مودة بين والدي وبين مرزوق معتقوهم الذي أصبح نوحذا السفينة التي يركب فيها والدي وكان يشارك والدي فيما يتخذه من قرارات.

كما كان أيضاً وجود عجلان بن خلفان الكواري وعلى الأخص ابنه محمد بن عجلان، مشجعا لوالدي حيث كان سكننا في بيت ملاصق لبيت عجلان رحمة الله اعد على عجل قبل قدومنا الى البحرين.

ويذكر والدي انه عندما قرر الهجرة خشي أن يتعرض له سعد الخرجي الذي كان مكلفا من قبل الشيخ حمد بن عبدالله بمراقبة حركة شمال قطر وكان يقيم على ظهر لنج يرسو في رأس ركن شمال شرق قطر. ولذلك قرر أن يخبر الشيخ حمد بن عبدالله حتى لا يتم التعرض له. فذهب كما يذكر رحمه الله إلى الوجبة غرب الريان مشيا على الإقدام (حوالي ٩٠ كيلومتر) . ونصى البورايح في الريان. والبورايح تربطهم مع جدي قرابة و صلة نسب وجدتهم هي أخت جدي واسمها شريفة بنت صالح، وكذلك عمتي لولوة تزوجها سلطان والد محمد وإبراهيم وشاهين

وراشد بن سلطان البورايح وتوفت رحمها الله وهي عند البورايح . ويذكر والدي أن جدي علي بن صالح زوج سلطان بالرغم من قيام البنغيث بتحيير عمتي بحكم القرابة وتهديد جدي بالقتل أن هو فعل .. وبعد أن أقام والدي عند البورايح أيام ذهبوا معه إلى الوجبة لمقابلة الشيخ حمد، وحصل منه على كتاب يقدمه إلى سعد الخرجي في حالة الحاجة. ويذكر أيضا أن حمد بن عبدالله شرهه بمبلغ من المال كان في شكل أنصاف و اربعاع الربية، بعد أن عذره في الاضطرار إلى الهجرة إلى البحرين. ويعلق والدي على تلك الشرهة بأنها من الرسوم التي تجمع من أسواق الدوحة.

ويقول انه عاد ماشيا على الأقدام. واتفق مع عجاج الكبيسي على أن يأخذنا إلى البحرين بعد أن رتب الأمر هناك مع محمد بن عجلان، على وقت الوصول والنزول فجراً باتفاق مع الناظر المكلف بمركز المراقبة في حالة النعيم وحالة إسطة. وكذلك رتب أمر الإقامة في حالة النعيم الذي ربطت والدي علاقة طيبة مع جميع أهلها من النعيم والسادة فضلاً عن البوكواره الذين يسكنون في تلك الجزيرة الصغيرة المنعزلة التي تقع جنوب عراد شرق وسط البحرين ويحيط بها البحر في حالة المد ولم تكن السيارة أو أي نوع من العربات لتصل إليها .

(٦)

انطباعات مبكرة عن البحرين

عندما وصلنا إلى البحرين حوالي عام ١٩٤٧، ولا أستطيع أن أجزم أن كان ذلك في أوائل الصيف أو بداية الخريف وانما اذكر أننا عندما استيقظنا في الصباح وجدنا كمية كبيره من الرطب بألوانه الصفراء والحمراء واللوز ولا أذكر أنني قد رأيتها من قبل في الغارية. إما بسبب عدم تذكري أو بسبب شحته في الغارية.

وقد مرت الأيام لا أعى كثيراً مما يحدث فيها ولكني اذكر بأنني قد ذهبت إلى المطوع في حالة السلطة وبدأت أتعلم قراءة القرآن ، وكنا نذهب مشيا على الأقدام في جماعة من الصبيان عبر ممر (حد) بارز يربط بين الحالتين ربما يبلغ طوله بضع مئات من الأمتار، ولا اذكر عن تلك الفترة إلا الخميسية التي كنا ندفعها

للمطوع كل خميس، وكانوا يقولون يوم الخميس إليّ ما يحفظ يخيس وربما يقصدون أن الذي لا يدفع الخميسية يضرب، وفي ذلك تهديد بالضرب بعصاة المطوع خاصة إذا تأخرت الخميسية.

أذكر أيضاً أن والدي بدأ يذهب الغوص في الصيف، كما يذهب مع عدد من أهل الحالة منهم محمد بن عجلان وعمير بن مهني ومحمد بن مهني النعيمي وشعيل وآخرين في سفينة ينقلون الماء من البحرين إلى زكريت في قطر وكذلك يحملون بضائع من الدوب (مواعين النقل البحري) إلى قرى البحرين ومدنها. يزاولون حسب ما تيسر لهم من عمل في زكريت غرب قطر حيث بدأ التنقيب عن النفط في دخان وفي البحرين وفي الخبر والدمام في المملكة العربية السعودية. ويبدو أن والدي خلال تلك الفترة تحسنت أحواله نسبياً عن ما كانت عليه في الغاربية، وكسب أصدقاء طبيين المعشر يعملون مع بعض ويقضون أوقات الفراغ مع بعض. ويذكر جاسم بن محمد بن عجلان أنهم في مرة كانوا منهمكين في لعب الورق و حان وقت الصلاة فتركوا الورق وقاموا ليصلوا جماعة وعندما بدأ احدهم، ولا انكر من هو قد يكون والدي أو محمد بن عجلان أو عمير، ينوي صلاة ركعتين السنه قال اللهم نويت أن أصلي خال الكلفس، حيث أن باله مازال معلق بلعب الورق وربما كان ينوي سرقة خال الكلفس .

ويذكر محمد بن مهني النعيمي حالة أخرى حيث كان هو ووالدي وشعيل وآخرون ينقلون الماء من البحرين إلى زكريت في قطر وأثناء سفرهم رءوا زجاجة طافية التقطوها وكان عليهم رمضان فقال لهم والدي هذه غرشة شربت (عصير) حطوها في الماء البارد (في الحب) إلى حين الفطور. وعندما حان الفطور يقول محمد بن مهني قمنا بفتحها فطاشت علينا وزيدت فقال لهم والدي "تيزاب تيزاب قطوها بحر" أي ارموها بحر. ويذكر محمد أنهم لم يعرفوا أنها بييرة إلا بعد أن فسرها لهم بعض العارفين.

و أذكر أنني مرة ذهبت معهم في رحلة نقل الماء من البحرين إلى زكريت، فكنا نبدأ من منطقة في البحر جنوب المحرق مقابلة لقلعة العزل الصحي، حيث ينزل الرجال بقرب من الجلد حتى يصل الواحد منهم إلى نبع ماء حلو في البحر ويتأكدوا

منه فيفتح فم القربة على منبعه حتى تمتلئ ويرفعونها إلى السفينة حتى يملوا خزانات الماء فيها، ومن ثم يبحرون إلى زكريت.

وأثناء هذه الرحلة أذكر أيضاً أنني تعلمت السباحة وكان ذلك عندما دفعني والدي من السفينة إلى البحر فجأة وكنا لا نبعد سوى أمتار عن جزيرة صغيرة، فحاولت السباحة مضطراً حتى وصلت الجزيرة وهم يضحكون على ويرددون سباحة كلاب سباحة كلاب، كناية عن أنني حاولت أن أرفع جسمي حتى لا أغرق مستخدماً يدي مثلما يستخدم الكلب يديه في البحر عند السباحة. وبعد تلك المحاولة زالت المخاوف من البحر وتعلمت السباحة على أصولها، ومازالت السباحة هي أحب رياضة إلى جانب المشي أزولهما حتى اليوم.

(٧)

ذكريات البحرين

ومما اذكره أيضاً عن هذه الفترة أيضاً عن إقامتنا في البحرين هو انعكاس نكبة فلسطين على أهل البحرين والمظاهرات التي قامت ونهبت محلات تجارية في البحرين، فقد وصلت إلى قرية الحالة بعض الغنائم ووزعت الأقمشة على الناس واذكر أن علي بن سالم البواريح الكواري كان من بين من أهدانا بعض مما غنم من أقمشة نهبت من متاجر اليهود في البحرين .

كما أذكر أيضاً شهر رمضان والفتور الجماعي الذي كان يقدمه عمير في البراحة حيث يقوم الرجال بعد التراويح بتلاوة القرآن. وكان والدي في هذه الفترة قد وطد علاقته بأهل الحالة ومنهم عمير ومحمد بن مهنا واحمد بن راشد وصالح بن خنفر من النعيم وعبدالله بن بدر وعدد من السادة الكرام إلى جانب علاقته بمحمد بن عجلان وإخوانه وابنه خلفان وشعيل، وكان والدي يقضي الشتاء معهم ويركب المواسم السابقة على موسم الغوص الرسمي "الخانكية" قبله و"الردة" بعده معهم، وكنت أصحابهم أحياناً في هذه الرحلات وكانوا في العادة يذبحون خروف عند الدخلة أول يوم يغادرون فيه، وكان نصيبي منه الرأس أكله في صباح اليوم الثاني. وفي مرة أصبت بدوار البحر ومنذ ذلك اليوم لم أعد أكل المخ على الإطلاق

ومازال المخ هو الشيء الوحيد الذي لا تقبله نفسي من الذبيحة حتى اليوم. وفي هذا يقول أصدقائي من باب المزاح الحمد لله علي ترك لنا الرأس، كناية عن حبي للحم.

وأذكر أن عدد من الأهل والأقارب في الغاربية مروا علينا في طريقهم إلى المملكة العربية للعمل وكان من بين من مر محمد بن جاسم بن علي من خوالي ويوسف بن محمد وهو ولد خالي محمد بن يوسف ، وكان والدي مسافرا وقمت مقامه بأمر من أمي في استضافتهم ومجالستهم على الطعام ولم أكن اعرف ما يجب أن يقال عند الدعوة للجلوس وعند الانتهاء منه، فغلطت واخذوا يضحكون علي وكذلك أمي تضحك معهم لأنني لم أحفظ تعليماتها.

وهكذا مرت سنة ١٩٤٧ و ١٩٤٨ في البحرين وحالنا أفضل مما كان قبل ذلك في الغاربية ولا يقلق أمي سوى فاطمة المسكينة غير السعيدة التي تركتها والدي مضطرة بعد زواجها غير الموفق الذي تصل أخباره إليها من حين إلى حين. وكذلك أخواتها خالتي حصة وهي أم ثانية لنا وخالتي لولوه وخوالي محمد بن يوسف وراشد بن يوسف. أما فيما عدا ذلك فقد كان كل شيء أفضل فقد دخل الرز إلى وجباتنا مع الجريش وأصبحنا نحصل على بعض الكماليات إلى جانب الضروريات. أما علاقة والدي بوالدي فقد كانت طيبة، لا اذكر أنني قد سمعت شجاراً بينهما ولا أذكر أن والدي قصر في واجب أو والدي قصرت، تجاه بعضهما أو تجاهنا. وكان والدي كثير السفر في سبيل الرزق وعلاقة والدي ببيت عجلان علاقة وثيقة فقد كانت هناك زوجة عجلان رحمها الله أم محمد بن عجلان امرأة فاضلة مسنة ربما كانت فوق السبعين اسمها مهره بنت سعد أخت احمد بن سعد وخالة ربيعة بن عيسى وإخوانه في الجذيع بقطر، وكان هناك خلفان بن محمد بن عجلان وزوجته غالية وكانوا حديثي الزواج وكانت هناك ابنت محمد بن عجلان واسمها " كاملة" وكانت مخطوبة لسالم بن احمد بن خلفان ابن عمها وكان النسوة يغيضونها بذكر اسمه، على ما اذكر.

وجارنا الثاني هو شعيل وزوجته دوله و هي من الأهل تمت بعلاقة الى البوكوارة، محبوبة جدا وصاحبت موقف ، تزوجت شعيل وهو رجل حر جاء إلى

قطر من وادي الدواسر فتزوج وأقام وأنجب منها مريم أم فرج بن دهام وإخوانه، وأم احمد بن شعيل، واستمرت علاقتهما بوالدي عندما عدنا جميعا إلى قطر إلى أن توافهما الله في مطلع ثمانينيات القرن العشرين.

وأذكر أنني في هذه الفترة وأنا عند المطوع قد أصبت ببثور تحول بعضها إلى قروح وكنت آخذ العلاج في مستشفى المحرق. كما أذكر أن والدي قد أخذني للتسجيل في مدرسة ابتدائية في البحرين وقبلت بها للعام القادم (١٩٤٩) ولكنني لم ادرس فيها عندما حان موعد الدراسة بسبب مرض أمي وإرسالي إلى قطر عند أخوالي.

ولا أنسى الختان وما تبعه من معاناة وصاحبه من احتفال وخداع. حيث جيء بمختن إلى الحالة ودفع بالصبيان إليه يجلس كل منهم على قدر مقلوب ويطلب منه أن ينظر إلى الطير فوق وعندها يقطعه بالموس الحادة. ... هذا كل ما اذكره خلال الفترة المبكرة من إقامتنا القصيرة في البحرين التي تفتح وعيي فيها وأصبحت أدرك الأشياء تدريجياً.

(٨)

ولادة شقيقي يوسف وما تلاها

في عام ١٩٤٩ تقريباً ولد أخي يوسف في البحرين وكانت ولادته في مستشفى النعيم في المنامة وقد قمت بزيارة والدتي في المستشفى التي طالت ربما إقامتها فيه بعض الشيء. لقد كانت فرحتنا وفرحة والدي وأخواني وأنا، بولادة يوسف كبيرة ولكن فرحت أمي وربما خالاتي حصة ولولوه بولادة يوسف أكبر فقد سمي على أسم والدهم، و لم يكن أي من خالاتي قد سمي يوسف. ولكن مع الأسف فإن والدتي لم تستمر فرحتها طويلاً فقد مرضت بعد ذلك بأشهر وعلى ما اعتقد أن مرضها كان التهاب الكبد ربما بسبب عملية نقل دم أثناء الولادة التي تمت في مستشفى النعيم في المنامة. وقد كانت دولة أم احمد، جارتنا وصديقة العائلة خير عون لأمي وربما أرضعت يوسف مع أبنها أحمد بن شعيل فأصبحت امه في الرضاعة.

وعندما اشتد المرض على والدتي ولم يعد يفيدها العلاج قرر والدي أن يستعجل في زواج شقيقتي من أمي مريم بنت ربيعة على ابن عمتها بعد أن توفت زوجته سعيدة بنت ربيعه أخت مريم من أبوها وخلفت ابنته هميان. وقد كان زواجا سريعا. جاء سعيد بسفينته ومعه والده وشقيقه وعلي بن هلال بن طارش على ما اذكر إلى حالة النعيمي في البحرين من الغارية في قطر، فتزوج مريم وبعد مدة قصيرة أخذها معه و عاد بها إلى قطر.

في هذه الفترة أشد المرض على والدتي فقرر والدي أن يرسلني إلى قطر في الشتاء أواخر ١٩٤٩ بداية ١٩٥٠ حتى أكون عند خالتي حصة وخالي محمد بن يوسف رحمهما الله. وقد كنت أنتقل بين عذبه والحاير في البر (حوالي ٣ كم غرب عذبه) حيث يقضي خالي موسم الشتاء مع علي بن عمران وعائلة محمد بن عجلان وكان خالي محمد بن يوسف أمام وخطيب الغارية. وكان قد تلقى العلم و معه محمد بن راشد بن سالم الكواري عند آل مبارك في الإحساء على المذهب المالكي. وعادا إلى قطر حيث أصبحا إمامين وخطيبين في كل من الغارية و ابوظلوف والفويرط. وكانت دراستهما عند آل مبارك في الاحساء تعبيرا عن انتماء أهل الغارية وقرى شمال قطر للمذهب المالكي.

وأذكر أننا كنا نتناول القهوة في بيت محمد بن عجلان في الصباح الباكر في الحائر، وكان الحضور يتكون من الرجال وكبار النساء فدخلت موزه زوجة محمد بن عجلان وأم جاسم وحمد بن محمد بن عجلان فسلمت على الحضور وبادرت خالي محمد بالتعزية في أخته موزه. وقد كان وقوع الخبر علي وقوع الصاعقة فقد تركتها مريضة وهذا خبر وفاتها يصل إلي متأخرا. كان خالي يعرف بذلك ويعرف أن والدي على وشك الوصول إلى الغارية ومعه ما تبقى من العائلة لولوه (٥سنوات) نجلا (٣ سنوات) ويوسف عمره اقل من سنة واحده. حيث لم يبقى لهم مكانا في البحرين ولا بد من العودة حيث الأهل وعلى الأخص خالتي حصة بنت يوسف التي كانت بمثابة الأم لنا منذ تلك اللحظة. عاشت لولوه ويوسف على الأخص معها وتنقلت نجلا بين فاطمة بنت ربيعة شقيقتي من أمي وبينها، أما أنا

فقد أصبحت ملازماً لوالدي منذ تلك اللحظة معه دائماً حيث ما حل أو رحل برا
وبحراً في قطر وفي البحرين والمملكة العربية السعودية معه.
دفنت والدتي رحمها الله في جزيرة عراد حيث يدفن أهل حالة النعيم والسلطة
موتاهم. وعاد والدي وإخواني في سفينة وكنت عندما علمت بالوفاة عدت إلى
عذبه عند خالتي حصة و وجدت عبدالله بن راشد حزيناً ملازماً الفراش و علي بن
راشد وأمي حصة حزينان فذهبنا جميعاً إلى الغارية وكان والدي قد وصلها أثناء
الليل . واذكر أن أختي لولوه بنت الخمس سنوات قد لاقتنا تحمل يوسف على
كتفها وفي البيت أخواتي فاطمة ومريم وعدد من نساء الغارية.
اتخذ والدي بيتاً من بيوت القرية سكنا له، أقمنا فيه أنا وهو أما يوسف والبنات
فقد كانوا عند خالتي حصة. واستمرت الحياة في وضعها الجديد وأصبح الهم
الأكبر لوالدي تدبير معيشتنا وتربيتنا ويبدو انه لم يفكر في الزواج خلال تلك الفترة
المضطربة من حياتنا وما صاحبها نتيجة لوفاة والدتي رحمها الله، واضطرار والدي
إلى ترك مصدر رزقه في البحرين.

(٩)

ما تحمله الذاكرة من بقية أحداث في البحرين

خلال فترة إقامتنا في البحرين والتي ربما امتدت من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٩
مازالت الذاكرة تحمل انطباعات وصور عنها. أول الصور كما ذكرت سابقاً، هي
رؤيتي للرطب والوز الذي وجدناه في بيتنا صباح وصولنا إلى حالة النعيم في
البحرين والذي أرسله الجيران لنا مع ما أرسل من ضيافة وتحية وصول. قد أكون
رأيت الرطب والوز وقد أكون أكلته في الغارية وقد لا أكون أكلته ولا رأيته قبل
ذلك، ولكنني على ما اذكر أن الكمية التي وجدناها حين استيقظنا من النوم
وحلاوة الرطب التي ضاعفها الجوع وغرابت الفاكهة بالنسبة لأهل الغارية مقارنة
بأهل البحرين، تركت تلك الفاكهة جميلة وشهية وقيمة في ذاكرتي حتى اليوم.
وثاني ذكرياتي يتعلق بالرطب أيضاً فقد اعتدت أن اذهب مع نساء العائلة
لشراء الرطب من عراد. وعراد شبه جزيرة تبعد عن جزيرة الحالة حوالي كيلو متراً

واحد شمالاً ويمكن العبور إليها براً في حالة الجزر وهي طريق أهل الحالة إلى بقية البحرين. حيث يعبرون في سفن شراعية صغيرة إلى مدينة المحرق بعد أن يقطعوا مزارع عراد مشياً على الإقدام. وفي مرة ذهبت مع النساء إلى عراد إلى شخص يبيع الرطب اسمه عبد الحسين وكان أهل الحالة يطلقون عليه فيما بينهم " كلب الحسين " لما في علاقتهم معه من حب وكره باعتباره مزودهم بالرطب الذي قد لا يكون بالجودة التي يرغبون، ومطالبتهم بالدفع وربما لوجود نزعات طائفية. وعندما وصلنا إلى المزرعة في مجموعة صغيرة من النساء وأنا معهم يقال أنني ذهبت إليه مباشرة دون سابق إنذار وقلت له "ياكلب الحسين أعطينا رطب زين". وكنت في ذلك ربما اردد ما كان يغني به النسوة في رحلة الذهاب التي هي بمثابة النزهة لهم وربما كان ذلك الاسم محمل بشعور طائفي مؤسف يوجد بين الجيران من الشيعة والسنة في البحرين في ذلك الوقت. فما كان من عبد الحسين إلا أنه أستل منجله غاضباً فهربت إلى من معي أحتمي بهن، وأصبحت تلك الحادثة نادرة يرددها أهل الحالة واذكر أن احمد بن راشد بن مهني النعيمي كان يشير إليها كلما رأي حتى عندما تجاوز عمري العشرين عاماً.

وعلى ذكر احمد بن راشد فقد كان بالرغم من مكانته الاجتماعية، خفيف الظل مرح كريم، تروى عنه الكثير من الطرف منها أن إمام الصلاة بعد أن أنهى الصلاة شك في عدد الركعات وما إذا كان قد أتمها أو سهى عن ركعة منها، فسئل من خلفه هل أتمنا الصلاة أم أنها ناقصة، فقال له احمد بن راشد لا أدري ولكنني أظن أننا لم نكمل صلاة العشاء لأنني في العادة عندما نكمل الركعات الأربع أكون قد فكرت في كيفية تجهيز سفينة الغوص ولكن هذه المرة يبدووا لي أن تفكيري لم يصل إلى وقت القفال أي موعد العودة من الغوص.

ومما اذكر أنني كنت العب مع الأطفال وكنت قريباً من البنات الأكبر سناً وفي مرة كلفني بعض الصبية أن أقول للبنات كلاماً لم أكن أعرف معناه ولا زلت لا أتذكره فغضبن مني وطرذنني من صحبتهن.

ومن الذكريات التي لم يمحها الزمن، وجبات الرز الخاصة بالعم عجلان بن خلفان التي كان ينشر عليها مسحوق من البهارات يتضمن الثوم المجفف والقلفل

الأسود، كي يزيد من حرارتها ويطلق لشهوة الأكل عنانها. وكان رحمه الله رجل طيب بلغ سنّاً متقدمة ربما حوالي الثمانين عاماً وكنت مثل الحفيد لديه ولدى زوجته الفاضلة مهره أم محمدي بن عجلان.

واذكر أيضاً عرساً في البحرين حضرناه وكانت الوليمة حلوى وخبز بدل اللحم حيث كان العريس من الفقراء جداً.

أما الصداقات التي أذكرها فإنها محدودة ومنها صداقتي مع ماجد بن عبد الرحمن بن راشد وعلي احمد بن راشد. وأبناء المعراج وهم الذين تم ختان صبية الحالة في بيتهم من قبل مزين جئ به خصيصاً من المحرق.

(١٠)

مسئولية الرجل في سن التاسعة

بعد أن عاد والدي ومعه بقية أفراد الأسرة التي فقدت قاعدتها الصلبة وهي الأم الحبيبة ربة البيت ومدبرته، أصبحنا أيتاماً متفرقين لا يضمنا مسكن واحد ولا ننعّم بما ينعم به غيرنا من دفيّ الأمومة ورعايتها. وبالرغم مما قدمته خالتي حصة وأختي فاطمة بنت ربيعة من رعاية لنا إلا أننا أقمنا متفرقين. أنا مصاحب لأبي أسكن معه والبقية عند خالتي حصة.

مر علينا ما بقي من شتاء وربيع عام ١٩٥٠ ونحن في الغاربية ذهبنا مع والدي إلى البحر، عندما قرر بعض أهل الغاربية الذهاب إلى فترة الغوص المبكر وتسمى (الركبة) وهي موسم قصير يبدأ على ما أظن في أواخر مايو لمدة ثلاثة أسابيع في "هيرات" قطر الغربية من الساحل الشمالي. وهذا النوع من الغوص هو غوص تعاوني "غوص خماميس" حيث يدفع من الحصيلة خمسها لصاحب السفينة وأربعة أخماس تقسم بين الغاصة والسيوب حصتين للغيص وحصّة للسبب، بعد خصم تكلفة الزاد. وقد ركبت معهم تباب ليس لي نصيب من الدخل ولا علي زاد، ونصيبي ما حصل عليه من لؤلؤ صغير (جماش) ابحت عنه في الفلقة وهي المحار بعد فلقه وما قد يكون فاتهم به من محصول لم يراه البحارة.

وفي ذلك الوقت لا يرحب أهل البحر بالتباب إلا في حالات خاصة، لأنه لا يقدم خدمة فيما عدى القليل غير الضروري وفي نفس الوقت يشاركونهم الأكل دون أن يتحمل تكلفة، ولكنهم قبلوا بي نتيجة لوضعي الخاص ومرافقتي لوالدي في كل سفر. واذكر أن والدي قال لي موصيا بعد أن بدأنا الرحلة "كل أكل الجمال وقم قبل الرجال" ويبدو أنني قد فهمت المثل فهما خاطئا بحيث أكلت أكل الجمال (الحيوانات) أي أكلت بسرعة فائقة حتى اشبع وأقوم قبلهم كما أوصاني أبي كما ظنيت، فكان ما أكلته من الرز الحلو (المحمر) القليل المطبوخ مع الدبس أكثر مما أكله أي من بقية الرجال الآخرين. فغضب والدي علي بعد الأكل وأفهمني ما يقصده بالجمال أي الرجال الذي يجاملون بعضهم بعضا عند الأكل وليس الجمال الحيوانات.

وأذكر في هذه الرحلة الموسمية " أن السفن الصغيرة تعود إلى الساحل في المساء وأحيانا نضطر بسبب الرياح الموسمية " أواخر السرايات ورياح البارح" أن لا نخرج إلى عرض البحر في الصباح أي " نعبط " كما كان يقال. وفي أمسيات أم أزبيره وهي ساحل رملي كان جميل ونظيف يقع بين رأس لفان والذخيرة على ما أظن، كان الشباب من مختلف السفن الصغيرة الراسية يلعبون في الليالي المقمرة " عظيم ساري " وهي لعبة شعبية يتبارى فيها المشاركون في الحصول على العظم الذي يرمونه ويتسابقون في الحصول عليه والوصل به إلى نقطة محددة.

كما أذكر أنني في هذا العام بدأت أجود القرآن على يد والدي بعد أن ختمته وأحسنت قراءته. ولذلك عملت لي ختمه طفنا بها الغارية وعذبة مع الأطفال أقرأ أنا التحميد والأطفال يرددون ب " أمين " وحصلنا على بعض الهدايا المتواضعة من رز وجريش ونقود قليلة. وقد حفظني ناصر بن أرحمه " التحميدة" وهو رجل كريم الخلق والفعل، مسن أنحنى ظهره ومن القلائل الذين يقرؤون القرآن ويجيدون الكتابة في الغارية. والتحميده وهي خطبة تبدأ "الحمد لله الذي هدانا ، للدين والإسلام أجتبانا ، سبحانه من علم سبحانه..." وكذلك أذكر في هذا العام أنني

قضيت بعض الوقت عند معلم عراقي أقام في الغاربية لمدة قصيرة في طريق سفره، وأتخذ من دار علي بن شاهين الذي كان يسكن الخريجة في ذلك الوقت مدرسة تعلمنا فيها الخط والكتابة وبعض الحساب وكان معي بعض أطفال الغاربية وأحفاد علي بن شاهين رحمه الله يأتون يومياً من الخريجة ومنهم شاهين بن مطر علي ما أذكر.

ومن ذكريات ذلك الشتاء الحزين ذكرى كانت مؤلمة لمشاعري، فعندما كنت العب مع حمد بن محمد بن عجلان وكان سنه تقريباً من سني تشاجرنا كما يتشاجر الأولاد، ولكنه ضربني على صدري ضربة شعرت معها باليتم وعدم وجود أم تدافع عني مثله. وهذه الضربة أستمرت في ذاكرتي باعتبارها أول " اعتداء غاشم " لم أستطيع أن أرده. سامح الله حمد ورحمه وغفر له مالحق بي من شعور باليتم.

(١١)

إلى البحرين، صاحبت والدي

بعد أن عدنا من "الركبة" ذهبنا إلى البحرين ، والدي وعلي بن راشد وأنا معهم لركوب الغوص مع بطي بن هادي الذي اعتاد والدي ركوب الغوص معه لبضع سنوات قبل ذلك. وقد قبل النواخذاً بطي بن هادي أن أتى مع والدي وأركب معهم تباب على عكس عادته حيث لا يوجد تباباً من قبلي في أي من السفينتين التي يملكهما من قبل. وكان بطي قد عين ابنه الصغير سعد (حوالي ١٧ سنة) نواخذاً دون أن يكون لديه خبره فطلب من والدي أن يكون هو النواخذة الفعلي إضافة إلى قيامة بالغوص حيث يوجه ابنه سعد ويشور عليه.

وقد كان سعد هذا مرفهاً وقد أتى لنفسه بزاد خاص غير زاد السفينة وطلب أن يطبخ له غداً على عكس ما جرت عليه العادة وكان هذا من حظي حيث إنني شاركته في وجبة الغذاء تحت عين وغيره وحسد البحارة وكان شعيل يرحمة الله يطلب مني أن أرفع له همزة من الرز اللذيذ المشخول ويصر على ذلك.

مرت السنة وكان نصيبي من التباة أكبر من نصيب والدي من الغوص. وكانت على ما أذكر حوالي مائتين ربية. وقد كان مبلغ ٢٠٠ ربية ثروة في ذلك الوقت، بدأ والدي يفكر في استثمارها الأمر الذي يحتاج إلى تشاور ودراسة للفرص. وقد أتخذ قراره بعد أن قضينا عدة أسابيع في البحرين بين حالة أسلطة عند بطي بن هادي وأبنة راشد ومرزوق وكذلك عند وافي بن هادي شقيق بطي وهو نوخذ أيضاً، فعله وكرمه وافي وإن كان جسمه على ما أذكر صغير. وقد كانوا جميعاً لطفاء وكرماء معنا. وكنت أدخل إلى منازلهم وأرى مستوى العز والرفاهية النسبية التي تطبع معيشتهم واللف في سلوكهم. رأيت السجاد والأسرة والفرش الناعمة وغرف جميلة عديدة وأكل طيب لم أراه في الغارفة ولم أتعرف عليه من قرب. وكذلك زرنا العجلان وشعيل و زوجته دولة وأصدقاء والدي في حالة النعيم. وذهبنا إلى رفاع البوكورة وزرنا حالة" أبو ماهر" في المحرق وأقمنا عند غيث وأسرته وعمه، والد زوجته مهني. و قد قيل لنا عن عجائب الراديو والديك الذي يصيح فيه، فذهبنا عند أبناء عثمان وهم أقرباء غيث حتى نسمع صياح الديك في الراديو.

وقد ترك ذلك الموسم الذي دخلت الغوص فيه تباباً انطباعات لا يزيلها الزمن جعل أصدقائي فيما بعد يقولون عني أنني من جيل أهل الغوص وهي صفة أعتز بها وإن كنت لم أتحمّل كل عناءها .

ومما أذكره عن الغوص، أن الحياة على ظهر سفينة لمدة أربعة أشهر لا يفصل بينها سوى راحة أيام قليلة، هي حياة شاقة في خضم رطوبة الصيف وريحة المحار الزفره، وقلة الأكل بل ندرة مياه الشرب حيث لا تتوفر المياه الحلوة إلا للشرب المقتن والمراقب. هذا إضافة أن محصول السفينة من اللؤلؤ لم يعد يوفر فائضاً نقدياً، و بالكاد يسد ثمن بيع محصول اللؤلؤ تكاليف موسم الغوص ويترك "رادي" أي دين على البحارة تراكم في أواخر زمن الغوص حتى نسجت حوله روايات وكثرت المبالغات.

ولكن لموسم الغوص لحظاته الجميلة ومنها أغاني البحارة وصوت النهام وصورة الجهد الجماعي المنظم الذي يبذله جميع من على ظهر السفينة بشكل

دقيق، وفق أعراف وتقاليد ونظم متوارثة. وقد كان من شيم البحارة أن يتسابقوا على حسن الأداء والتميز فيه. ومن ذلك أن كل غيص وسيبه في نهاية اليوم يعلن على الملأ محصولهما من المحار، فيقال بيض الله وجه فلان غيص جيد وسيب نشيط. وفي المساء يقوم النواخذ أحياناً ببادرة معنوية عند العشاء عندما يقدم همزة من الرز مغمسه بالدهن البلدي أو سمكة مشوية إضافية إلى غيص تميز في إنتاجيته في ذلك اليوم. وهذه جائزة معنوية تسمى " مرسوم " .

بعد تلك الجولة التي قضاها والذي يزور أصدقائه ويتشاور مع بعضهم حول خطوته التالية عدنا إلى قطر. عدنا إلى الغارية وأذكر أنني كنت فرحاً جداً بالعودة وكنت عندما قربنا من قرية الغارية أقف على طرف السفينة عند منتصفها أنظر إلى الغارية بشوق وكان الوقت عصر والشمس تصافح وجهي. كنت ممسكاً في يد بكل ما أملك وهو صرة فيها ثوب جديد لاس أي حرير صناعي، اشتراه لي أبي من البحرين من حصيلة تبابتي. ومن فرحتي بالوصول ومع حرصي على الثوب الجديد فقد سقط الثوب من يدي في البحر، فما كان مني سواء القفز وراء الثوب فوراً ودون تفكير مما كاد يؤدي بحياتي وأريك أبي وأهل السفينة الشراعية الذين اضطروا إلى أنزال الشراع وتغيير اتجاه السفينة بصعوبة وقفز والذي إلى بحبل من أجل إنقاذي. فعاد بي ممسكاً بصرتي وفيها ثوبي الجديد الذي لا يوجد مثيلاً له في الغارية.

وبعد أن قضينا فترة قصيرة في قطر غادرناها، والذي وأنا معه مرة ثانية إلى البحرين ومنها إلى المملكة العربية السعودية.

(١٢)

في الطريق إلى المملكة العربية

عدت مع أبي إلى البحرين وذهبنا هذه المرة إلى رفاع البوكواره بغرض الحصول على وثيقة سفر بحرينية للسفر بها إلى المملكة العربية السعودية. وكان أمر الحصول على وثيقة سفر بحرينية بالنسبة لأهل قطر أمر يسير. وبالنسبة للبوكواره على سبيل المثال كان الحصول عليه يتم برسالة من غانم بن عبد

الرحمن كبير البوكواره المعتمد لدى حكومة البحرين. وكان الحصول على جواز من البحرين أسهل من الحصول عليه من الدوحة، حيث الدوحة في الجنوب على مسافة بعيدة أما البحرين في الشمال فهي قريبة من شمال قطر وفي الطريق إلى المملكة العربية السعودية. ولم يكن هناك حرج من قبل الحكومات أو من قبل الناس. والقصد من الوثيقة هو تسهيل السفر.

خلال هذه الفترة كنا ضيوفاً عند جماعتنا من البوكواره أحيانا لدى يوسف بن محمد ويوسف بن مساعد وسعيد العامري وربما لدى آخرين في الرفاع وخلال هذه الفترة تعرفت على محمد بن يوسف وكان شابا يعمل لدى شركة بابكو كما تعرفت على محمد بن بخيت وكان قريبا من سني وكانت شقيقته قد وضعت ابنها مساعد وأذكر أن الطفل كان موضع اهتمام أهل الرفاع وبقي في ذاكرتي باعتباره الطفل محل العناية الذي رأيته عند أهلنا المرفهين نسبياً في البحرين والتي لم تكون موجودة بنفس القدر في الغارية.

ومن الصور التي لا تفارق ذهني صورة يوسف بن محمد وابنه محمد بن يوسف الذي أستمرت الرسائل متصلة بيننا حتى عادوا إلى قطر حوالي عام ١٩٥٦، كان العم يوسف رجلاً وقوراً كريماً حسن الحديث صاحب موقف ومجلس استمرت مودتي له حتى أختاره الله. وكان بعقاله الأبيض وعصاه التي لا تفارقه رمزاً وصورة مشرقه لأهل قطر الأولين.

(١٣)

تاجر شنطه يهرب دبابات

بعد إقامة قصيرة في الرفاع وحالة بو ماهر عند غيث بن عبدالله وعائلته وهو بمثابة الابن لوالدي بحكم زواج والدي من أمه سلامة. وسلامة هذه امرأه فاضلة لم يذكر والدي أي من زوجاته الثمانية كما ذكرها بالخير فقد عاش معها سنوات هنيه ممتعة فقد كان هو في منتصف العمر وهي قد تعدت سن الإنجاب فما كان منها إلا أن أصرت عليه أن يتزوج أمي عليها حتى ينجب أبناء. وهذا أمر نادر ونكران للذات. فتزوج من رشحتها سلامة وهي والدتي . ويقول والدي أنه بعد ان

تزوج والدتي اضطربت حالة سلامة وأخذت في النحول حتى اختارها الله الى جواره

بعد إقامة قصيرة في البحرين أشترى والدي بضاعة من أحد تجار البحرين دفع قسم من ثمنها واستدان البقية وذلك من أجل السفر إلى السعودية والمتاجرة فيها ضمن تجارة الشنطة التي كانت سائدة ومربحة في ذلك الوقت مطلع الخمسينيات، حتى أن الرجل كان يستأجر بعض النساء الكبيرات في السن للسفر بهم والعودة في نفس اليوم وذلك من أجل الاستفادة من شنطة كل واحدة منهن وكان أهل البحرين يسمون تلك النساء دوب (ماعون نقل بحري) بمعنى أن الرجل هو بمثابة "التك" أو القارب الذي يقلص عدد منهم.

ذهبت مع والدي بعد أن اعد لنفسه شنطة ولبس أحسن الملابس من أجل تمريرها من الجمارك وكذلك فعلت. وفي العادة يلبس الإنسان أكثر من قطعة لتميرها. وحمل كل منا شنطة ممتلئة ببضائع تبدو في ظاهرها شخصية ولكنها في الحقيقة من أجل البيع. وكانت شنطتي تحمل ألعاب أطفال من دبابات ومدافع وسيارات وغير ذلك. وعندما كنا نمر من خلال الجمارك في المملكة ونفتش من قبل رجال الجمارك وجدت أن المفتش يلتفت على والدي ويقول له ماذا يحمل أبنك يحمل مدافع ودبابات يريد أن يهربها إلى المملكة، ألا يخشى ابن سعود وأبن جلوي، ألا يخاف من السجن أو الإعدام. كانت لهجة الرجل تبدو جادة لي، أخافتني إلى أن رأيت من معي يضحك فهدأ روعي بعد أن سمحوا لنا بالمرور. وقد كانت تلك الشنط فاتحة خير علينا فقد كنا نبيع ما قيمته ربية بريال والريال يساوي ربيتين. وقد كان البيع فوري حال الوصول إلى قرية "الثغبه" حيث كان عدد من جماعتنا البوكواره يقيمون ويعملون في الشركات المتعهدة لدى ارامكو وقلة منهم يعملون في ارامكو مثل جاسم بن سعيد الذي كنا نقيم في مجلسهم في البداية، في ضيافة اخوه الأكبر احمد بن سعيد رحمة الله. وجاسم بن سعيد هو ابن بنت زوجة والدي الثانية وقد عاش عندما كان صغيراً قريباً من والدي ويذكر جاسم بن سعيد قصصاً طريفة، منها انه عندما كان طفلاً يحبوا كان بصحبة والدي يلعب في البراحة ، وكان والدي وعدد من رجال الغارية يتفرجون على محصولهم

من اللؤلؤ ، فما كان من جاسم الا ان اقترب منهم وسحب قطعة القماش التي عرض اللؤلؤ عليها قائلاً " قمش " أي " قماش " وهو الاسم الذي يطلق على اللؤلؤ الصغير، فنثر اللؤلؤ واختلط بالرمل ففرع الرجال عندما راو محصول موسمهم من الغوص يختلط بالرمال.

بعد ثلاث أو أربع رحلات من رحلات تجار الشنط المريحة مع والدي تجمع لديه مبلغ محترم ففتح محل تجاري. استمرت بعد ذلك أقامتنا في المملكة حتى بداية عام ١٣٧٣ هجرية حين قرر والدي أن يبيع المتجر المتواضع والبيت الذي أخطه على الرمل جنوب المسجد الجامع دون رخصة وبناء بمساعدة خلفان بن محمد بن عجلان من الصفيح، ونعود إلى قطر حتى يلتئم شمل الأسرة التي بقي نساءها في الغارية ورجالها بما فيهما يوسف ابن الثالث أو أربع سنوات معنا في المملكة العربية السعودية. وعدنا إلى الغارية بمبلغ محترم في ذلك الوقت منه ثمانية آلاف ريال ثمن البيت الذي باعه والدي في الثقبه .

ومما أذكره خلال هذه الفترة إضرابات العمال في ارامكو في بداية الخمسينيات وكذلك زيارة الملك سعود للظهران. وقد كانت تلك الزيارة فاتحة خير لي فقد عملت كاتب رسائل مقابل ريال لكل رسالة اكتبها باسم حاملها إلى الملك سعود الذي كان يعطي لكل صاحب رسالة عشرون ريال. وقد حصلت على مسودة الرسالة من الشيخ سعد بن راشد الكواري والد الشاعر راشد بن سعد، الذي كان خطيباً لأحد مساجد الثقبه وقمت بنسخ ما جاء فيها مع تغيير اسم مرسلها. وأذكر أيضاً أن جماعتنا من البوكورة وغيرهم من أهل قطر اللذين يقيمون في الثقبه والعقريية كانوا بمثابة أسرة واحدة يتعاونون على زمنهم الرديء ويقفون وقفة رجل واحد وكانون كثيرون، حيث أن أكثر من ربع رجال الغارية كانوا يعملون في المملكة في ذلك الوقت والقليل منهم استقدم أسرته وقد عاد أغلبهم إلى قطر في مطلع الخمسينيات.

(١٤)

ذكريات أخرى من الثقبه

وهناك ذكريات أخرى انطبعت في الذهن خلال فترة أقامتنا في قرية الثقبه بالمملكة العربية السعودية . منها أن الثقبه والعقريه مبنيتان من الصفيح في ذلك الوقت ولا يوجد فيهما مبنى من الطابوق أو الحصى سوى المسجد وربما مباني حكومية لم ألاحظها. وكان أغلب سكانها من القادمين للعمل من بادية السعودية ومن قطر والبحرين. و قد كان الناس في البداية يبنون مساكنهم من الصفيح دون أذن حتى تدخلت الحكومة فيما بعد.

ومن الذين كانت لهم مكانة وكان مقاولاً عند ارامكو من البوكورة مبارك بن راشد " طويل العمر " كما كان يلقب. وهو رجل كريم مرح لطيف المعشر. وكان أيضاً مقاول حج، يأخذ الحجاج من المنطقة الشرقية ومن يأتي من قطر والبحرين. وفي عام ١٩٥١ أو ١٩٥٢ جاء خالي محمد بن يوسف خطيب مسجد الغارية وأمامها، إلى الثقبه وذهب مع مبارك بن راشد إلى الحج . ولم يعد خالي محمد مع العائدين . فقد أثره ولم توجد جثته ولا خبر عنها. وحزن الجميع وخاصة خالتي حصة وقالت أشعاراً حزينة في فقده. وقد تضاربت الروايات عنه، فقيل أنه هاجر وأقام في الحرم واتت في ذلك أخبار وحتى يومنا هذا لم نعرف حقيقة ما جرى رحمه الله واسكنه فسيح جناته. ومن الذكريات أو قل رحلة شاقه قمت بها علي ظهور الجمال مع جماعة من قبيلة المرة الكرام وهم اصهار جاسم بن سعد، إلى قلب الصحراء ربما باتجاه الربع الخالي أستمر فيها المسير أيام وقمت عندهم في بيوت الشعراء بين الجمال والأغنام وحياة البادية. و قد كانت تلك الرحلة مثل الحلم لدي يتردد في ذاكرتي وفي المنام.

ومن الثقبه أيضاً زرت مع والدي العقريه وأقمنا عند عبد الله وأحمد بن دلهم و زايد بن احمد. وأثناء تلك الزيارة أذكر أنني ذهبت مع ضاعن بن عبد الله وفهد بن فهد إلى ميدان الجلف حيث يلعب الأمريكان، وقمنا بحمل شنت اللاعبين واللاعبات مقابل ريالين حصل عليها كل منا . ولعل ولع فهد بلعبة الجولف وممارسته لها فيما بعد. بعض من تحقيق أحلامنا التي كنا نعد أنفسنا بها عندما نكون.

وأخر ذكريات الثقبه كان عام ١٣٧٣هـ وربما توافق ١٩٥٢ م، واذكر الرقم ١٣٧٣هـ مكتوباً بخط كبير جميل، بخط محمد بن شاهين وهو في مكانه والدي، على شنطة ضيعتها وفيها ٥٠٠ ربيه فأعادها محمد بن شاهين إلى والدي بعد أن ظن والدي أنها فقدت. والقصة هي أن والدي أرسلني مع محمد بن شاهين إلى البحرين وأعطاني شنطة بها ٥٠٠ ربيه أسلمها لعميلنا في البحرين كي يحضر لي شنطة أعود بها في اليوم الثاني أو نفس اليوم إن أمكن مع محمد بن شاهين، لكننا لم نستطيع السفر من مينا الخبر في ذلك اليوم بسبب الرياح العاتية وكان علينا رمضان فنام محمد بن شاهين في انتظار الأمل بالسفر. وأثناء نومه وجدت فرصة لي للعب مع الأطفال فتركت الشنطة بجانبه وذهبت وعندما عدت لم أجد محمد ولا الشنطة وكان الوقت عصراً ففرغت أشد الفزع وعدت أركض من ميناء الخبر إلى الثقبه (حوالي ٤ كم). وعندما وصلت إلى والدي بخبر فقدان الشنطة والخمسائة ربيه تركني في خوفي حتى انتهينا من الإفطار فذهبنا نبحث عن محمد بن شاهين وبعد فترة من المزاح والنكران أخرج الشنطة وما فيها فعادت إلي الروح بعد أن كادت تفارقتي، وكان مكتوباً على الشنطة بخط محمد بن شاهين "الجميل" علي بن خليفة الكواري ١٣٧٣"، أراها حتى اليوم مرسومة لا يمحوها طول الزمن.

(١٥)

تأسيس حياة من الأنقاض

نعم لقد كانت وفاة والدي رحمها الله كارثة على العائلة وجاء موتها كأنه مفاجئة تشتت بعدها شمل عائلتنا الصغيرة التي لم يكن يجمعها مكان أو يضم شملها بيت قضينا سنتان منها في السعودية وعدنا منها عام ١٣٧٣ هجرية. وقد كان أول ما عمله والدي عندما وصلنا إلى الغارية عاندين من السعودية أن أختار بيت هلال بن طارش بجانب بيت خالتي حصة وأولادها علي وعبد الله وبجوار

بيت سعد بن ربيعه، وقام بترميمه وتسقيف حجراته. وقد كان من عادات أهل قطر عموماً وأهل قرى الشمال خصوصاً أن يأخذوا أسقف منازلهم وأبوابها معهم عندما يتركونها إيداناً بتخليهم عنها، ولذلك يكون من حق من أراد السكن فيها أن يقوم بترميمها ووضع الأبواب والشبابيك والأسقف فتصبح مسكن له طالما كان منتفعاً بها.

وعندما تم إعداد البيت للسكن انتقلنا إليه، أنا ووالدي بشكل دائم أما أخوتي البنات و يوسف فقد كانوا يعيشون حيث يرغبون، كانوا ينتقلون بين هذا البيت وبين بيت خالتي حصة المجاور . وفي هذه الفترة قرر والدي أن أعود إلى دراسة القرآن وتجويده فذهبت إلى علي بن دسمال في الخريجة - قرية على بعد ٣ كيلومتر غرب الغارية يسكنها علي بن شاهين واولاده مطر واحمد - واستمررت اذهب ماشياً يومياً للدراسة لبضعة أسابيع تمكنت خلالها من تجويد القرآن. وكان طلاب المدرسة هم شاهين بن مطر و أخيه عيسى بن مطر ويوسف بن احمد واخية عبدالله بن احمد. فقد كنا خمسة، أربعة من أهل الخريجة انضممت أنا إليهم.

وقد كانت هذه الفترة فترة هادئة من حياتنا لا يُنْقَصُها إلا ما كان يحدث من شجار بين أختي فاطمة وزوجها وأهل زوجها. وكان هذا الخلاف المزمع سبباً في هجر فاطمة مسكنها إلى قرية عذبة والاستجارة بعلي بن شاهين وهو كبير الفخيز التي ينتمي إليها والد فاطمة، كنت أزورهم في عذبة عند الفاضلة ام شاهين دون أن أستطيع عمل شيء وأنا ابن الحادية عشر من عمري.

و مازلت اذكر عند زيارتي تلك حالة الربيع الجميل والعشب الوفير الذي ازدانت به عذبة والمساطيح بينها وبين الغارية.

وفي احد المرات ذهبت فاطمة دون أن تأخذ نجلاء أختي الصغيرة البالغة من العمر حوالي ٧ سنوات معها. فما كان من نجلاء بعد أن وقفت على جبل الغارية ورأت أشجار عذبة، إلا أن انطلقت تركض إلى عذبة حتى وصلت قبل أن نعرف بذلك وندرکها. لقد كانت نجلاء وفاطمة رحمهما الله قريبتان من بعضهما وكانت فاطمة بمثابة الأم لنجلاء.

فيما عدى ذلك فان ذكريات الغاربية في بداية تلك الفترة كانت عادية مواسم عيد وما يصاحبها من عرضة للرجال ومرداة للبنات. وحفلات زواج وفزعات بناء مسكن أو غرف اضافية لمن يريد أن يتزوج. وكنا نحضر أحيانا قيام بعض اهل الغاربية بشراء خروف وذبحه وقسمة أجزاء متساوية منه بالقرعة بين المشاركين في ثمن شراء الخروف .

عاد رجال الغاربية إليها في مطلع الخمسينيات من السعودية حيث هاجروا دون أخذ أسرهم وذهب أغلبهم للعمل في دخان عند شركة نفط قطر ولدى الدرويش المقاول الرئيسي لدى الشركة. ولم يذهب والدي وعدد قليل من رجال الغاربية وعذبه والفويرط والغشامية والجذيع والخيسة وبقية القرى التي يسكنها البوكورة في شمال قطر.

واذكر أن أهل الغاربية كانوا ينتظرون مساء الخميس من أول كل شهر بصبر، حيث يعود العاملون في دخان في أجازة شهرية لمدة ثلاثة أيام. وخلال وجود "أهل دخان" تتغير الغاربية وتلبس حلتها وتزين النساء ويتهين من لم يتزوج لزواج أو عقد قران ويتعاون أهل دخان مع بقية أهل الغاربية لبناء دار لعروس جديدة.

وقد شهدت بناء دار محمد بن غيث الذي تزوج فاطمة بنت عمه عبد الله بن شاهين بن غيث. وكان محمد، الله يرحمه. خفيف الظل ظريف محبوب من الجميع الذين فرحوا بزواجه، وتجمعوا كلهم في يوم جمعة لبناء دار له ولعروسه وكان عددهم أكثر من اللازم وهمتهم للعمل وقدرتهم عليه عالية بفضل الجو المرح الذي خلقته الفزعة لمحمد بن غيث وكذلك صحة اهل دخان التي تحسنت عما كانت عليه قبل الذهاب إلى دخان. ونتيجة لهمة الرجال وصل البناء إلى مستوى السقف قبل صلاة الجمعة وموعد ألغدا الذي يقدمه في العادة صاحب البناء للعاملين فيه وهذا هو كل ما ينالهم، وعندما كان الجميع منهمكون في تناول الغداء إذ بالبناء ينسلخ وتتهاوي الحجرة التي بنيت بالحصى والطين، بسبب السرعة في البناء وعدم الانتظار حتى يجف الطين ويتماسك مع الحصى الذي يبني معه.

كان البناء بالحصى والطين والماء من البحر ولا يوجد اسمنت ولا غيره من مواد البناء الحديثة، وكان بناء الحجرة في العادة يأخذ عدة أيام يجف فيها

الأساس قبل أن يبني عليه ولكن الحماسة لزواج محمد بن غيث جعلت البناء يكتمل في نصف يوم. وبعد ذلك أعيد البناء وأكمل بالشكل الصحيح وتزوج محمد بن غيث. وهذه الحجرة مازالت قائمة وكلما انظر إليها من فوق جبل الغارية أتذكر ذلك اليوم البهيج والفرحة والمحبة بين أهل الغارية حتى ذلك الوقت، وقبل ان تشتتهم المصالح التي بدأت عندما بدأت الحكومة تقدم لهم بعض الخدمات وتبرز فرص لمقاولين يحصل عليها البعض ويحرم منها الآخرين الأمر الذي أدى إلى خصومات أدت إلى نزوح من لم تطاله المصلحة إلى الدوحة، حتى فضت الغارية من ساكنيها.

(١٦)

طلاق بالحجارة

إذا كان هناك شيء آلمني منذ أن كنت في السابعة حتى بلغت سن الثانية عشرة سنه، فأنة الظلم الذي لحق بأختي، في وقت كنت فيه أنا صغيراً عديم الحيلة ولم يكن هناك من له حق حسب العرف السائد أن يتدخل ويحل تلك المأساة الإنسانية. فليس هناك ما هو أثقل على النفس من أن تجبر امرأة أو يضطر رجل على استمرار حياه زوجية فقدت فيها المودة وانقطعت منها الرحمة.

وفي يوم جمعة مباركة كنت بصحبة جهام وأخوه سعود بن عبد العزيز بن على بن عمران نستعد للذهاب إلى صلاه الجمعة فمررنا على بيتهم وهو بجانب المسجد الجامع في جنوب الغارية، وبينما كنا هناك دخلت الفاضلة أم جهام غاضبة تخبر زوجها قائلة على ما أذكر " حسبي الله عليهم يظلمون فاطمة بنت ربيعة كل يوم ". فعلمت أن معركة بين فاطمة وبين كل أسرة زوجها قد حدثت كما كانت تحدث من آن إلى آخر. شعرت بقهر وغضب فذهبت صامتاً إلى صلاة الجمعة وأخذت المصحف الكريم وبدأت أقرأ سورة يوسف وجسمي يرتعش وذهني يسترجع شريط الظلم العظيم الذي وقع على فاطمة دون أن تكون هناك وسيلة لتخليصها من هذا الزواج ، ودون أن يتدخل أحداً بالحسنى لوضع حداً لهذه المأساة الإنسانية التي كان يعرفها ويحس بها جميع أهل الغارية وعذبة .

وعندما انفكت الصلاة أسرع خارجاً من المسجد وملئت حزن ثوبي بالحجارة ووقفت عند باب المسجد أنتظر خروج، وعندما، أخذت أرمي الحجارة وأصرخ ظلم، ظلم، ظلم، فتجمع المصلين وأنحاز الى جانبي والدي وخوالي وحموني من ردة فعل محتملة. ولم تنتهي والله الحمد المسألة هذه المرة هنا وإنما تم الاتفاق في نفس اليوم بين والدي وبين أخوالي على ضرورة رفع الظلم عن فاطمة واللجوء لحاكم قطر الشيخ على بن عبد الله في الدوحة.

وبعد صلاة عصر يوم الجمعة المباركة تلك، عزم والدي وخالي راشد بن يوسف وعلى بن جاسم وهو زوج خالتي لولوة بنت يوسف وحسن بن جاسم وهو رجل حجة وقدرة على المطالبة بالحق، له كل صفات المحامي الناجح دون أن يدرس مهنة المحاماة، عزموا على رفع الأمر للحاكم والقاضي في الدوحة. وكان أهل دخان يستعدون للعودة إلى دخان مساء ذلك اليوم فركبنا معهم في السيارة النجال " القلاب " وذهبنا إلى دخان ومنها في صباح اليوم التالي إلى الدوحة.

عرض والدي وخوالي الأمر على الحاكم فأمر بحضور فاطمة وعرض الأمر على القاضي. ذهب والدي وأحضر فاطمة وأخذها ومعها شقيقتي نجلاء إلى بيت هيا بنت ناصر وكانت تسكن في البر في موسم الشتاء. رحبت هيا بوالدي وبفاطمة وكانت متعاطفة معها وأحسنّت ضيافتهما رحمهما الله جميعاً، باعتبارها فطمه بنتاً من بناتها.

وبعد أيام عرض الأمر على القاضي عبد الله بن زيد المحمود وحكم بطلاق فاطمة واضعاً بذلك حداً لتلك المأساة الإنسانية التي عشناها بل عاشتها الغارية كلها لعدة سنوات.

وجدير بالذكر أن هيا بنت ناصر رحمها الله قد خطبت فاطمة بعد أن أنقضت عدتها، لأخوها سلطان بن ناصر وبعد خمس سنوات خطبت نجلاء لأبنها ناصر. وقد تم زواج فاطمة وانتقلت إلى قرية " الجذيع " وكنت أزورها أحياناً. وهناك تعرفت على آل عيسى الكرام وقامت علاقة صداقة بيني وبين عيسى بن ربيعة منذ ذلك اليوم، وقابلت عيسى بن غانم هناك عندما أتى زائراً لقطر مع والده.

أنجبت فاطمة بنتاً من سلطان ولكنها بعد الولادة بمدة مرضت ثم انتقلت إلى رحمة الله وبعد ذلك بمدة توفت أبنيتها أيضاً، وقد سميت فاطمة وهي في حضانة خالتي حصة بنت يوسف. أما زوج فقد تزوج وأنجب أبناءً وبنات. وأصبحت علاقتي به وخاصة بأخيه وسائر أفراد العائلة علاقة الأهل الأعزاء بعد أن طويت تلك الصفحة السوداء، التي أدت أن يكون لي من الظلم موقف. فما زلت حتى الآن إذا رأيت ظلماً ينزل على إنسان ضعيف ولا أستطيع أن أقف معه أبكي. وآخر مرة بكيت فيها عندما بدأت أكتب هذه الحلقة من ذكريات الطفولة وأستعيد صورة ضعفي وعجزني عن مقاومة ذلك الظلم. وفي مرة منذ سنوات وجدت نفسي أبكي عندما شاهدت حلقة تلفزيونية حيث رأيت العوز والذل يلحق بعمال المناجم المضربين لمدة أشهر في الولايات المتحدة، على يد ملاك المناجم والحكومة الأمريكية. فالظلم واحد وهو كربه على النفس والبكي تعاطف العاجز عن محاولة رد الظلم كفانا الله تداعياته.

(١٧)

هذا بني عم وهذا بني خال

في ختام حصاد ذاكرة الطفولة وما قمت بسرده من انطباعات علقت بالذاكرة منذ كنت في سن الثالثة حتى بلغت الثالثة عشرة في عام ١٩٣٥، تبرز معانٍ وقيم وأعراف جميلة فقدت حياتنا الاجتماعية الراهنة معظمها. وأبرز تلك المعاني قيم الاعتماد المتبادل والتعاون والتواضع وعدم الأدعاء الأجوف وتمييز الذات وإعطائها مكانة لا يسبقها المجتمع على المدعي .

لقد لاحظت هذه المعاني العظيمة في كل من عشت بينهم من أهل الغارية والبوكورة وأهل قطر وكافة من شانت الظروف أن أحتك به طيلة مرافقتي لوالدي في حلة وترحاله في قطر والبحرين والمملكة العربية. فقد كانت تلك القيم والأعراف تعبر عن شعور بالتكافؤ الاجتماعي الذي عبرت عنه علاقات الزواج الواسعة، التي أصبحت مختلف عائلات البوكورة على سبيل المثال ، متداخلة بفضلها بحيث

يندر أن تجد فرداً لا يتقاطع نسبة من حيث الأب أو الأم مع أغلب عائلات البوكورة إن لم يكن كلها.

ولعل بيت الشعر النبطي القائل:

هذا بني عم وهذا بني خال وهذا رفيقاً ما وجدنا له مثيل

يعبر خير تعبير عن ما وعيت عليه من علاقات اجتماعية يغلب عليها التعاون والتعاضد وخفه النفس والتواضع. فقد كانت تلك المعاني والقيم والأعراف هي ما كان أهل قطر يستعينون به في مواجهه الزمن الرديء الذي تفاقم في قطر منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين وحتى نهاية أربعينيات القرن عندما بدأ عصر النفط بخيره وشره يسود ويغير الحياة والعلاقات الاجتماعية.